مجلة الشهاب • المجلد: 08، العدد: 03 (2022م) • ص ص 495 - 512
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)



# التصوف في فكر مالك بن نبي

## *Sufism in the Thought of Malik Bin Nabi*

**د/ خالد محجوب** *

مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية،
جامعة الجزائر1 بن يوسف بن خدة (الجزائر)
kh.mahdjoub@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/07/17 | تاريخ القبول: 2022/10/18 | تاريخ النشر: 2022/11/12



**ملخص**: يهدف هذا البحث إلى بيان موقف مالك بن نبي رحمه الله من التصوف، كما يهدف إلى التحقيق في تموضع الفكر الإصلاحي لمالك بن نبي في جانبه الأخلاقي، في إطار النسق العام لمرجعية علماء الغرب الإسلامي، حيث بدا لنا بعد البحث والتمحيص أن البعد الأخلاقي أو الصوفي كان حاضرا بقوة في كتابات مالك بن نبي، إلى درجة اعتباره روح المشروع الحضاري الذي قدمه ابن نبي تحت عنوان "مشكلات الحضارة".

**الكلمات المفتاحية**: مالك بن نبي؛ التصوف؛ الحضارة؛ الإصلاح؛ التربية.

**Abstract**: This research aims to clarify the position of Malik bin Nabi, from Sufism. It also aims to investigate the positioning of the reformist thought of Malik bin Nabi in its moral aspect, within the framework of the overall frame of reference for Islamic West scholars. The moral and Sufi dimensions waere strongly present in Malik bin Nabi's writings, to the point of being considered the spirit of the civilizational project presented by Malik bin Nabi under the title "The Problems of Civilization".

**Keywords:** Malik bin Nabi; Sufism; civilization; reform; education.

### 1. مقدمة

يهدف هذا البحث إلى بيان موقف مالك بن نبي رحمه الله من التصوف، كما يهدف إلى التحقيق في تموضع الفكر الإصلاحي لمالك بن نبي في جانبه الأخلاقي، في إطار النسق العام لمرجعية علماء الغرب الإسلامي، التي تبلورت عبر التاريخ وفقا لمصادر التشريع الإسلامي وخصوصيات المنطقة المغاربية، فاكتسبت بذلك نغما معرفيا متميزا عبر عنه عبد الواحد بن عاشر بقوله:

في عقد الأشعري وفقه مالك = وفي طريقة الجنيد السالك

ولأن مالك بن نبي التبسي الجزائري ينتمي إلى ذات المنطقة، وقد رفع لواء الإصلاح في زمن الاستعمار وما بعد الاستعمار، فلا شك أن انتماءه المرجعي الأخلاقي سيظهر بشكل أو بآخر من خلال مؤلفاته الإصلاحية وهو ما عبر عنه د. زيدان خوليف بالقول: "فقصة (لبيك) رسمت عمق الروح الجزائرية

* المؤلف المراسل.

وشخصيتها المنتمية إلى تراث الثقافة والحضارة الإسلامية المنشدة إلى منازل الوحي."[1]

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا بأن حضور البعد الأخلاقي أو الصوفي في كتابات مالك بن نبي ملفت وطاغ إلى درجة أن القارئ المدقق لكتبه ومؤلفاته يغرق أحيانا في بعض الصفحات المليئة بمصطلحات وأفكار هذا الفن المعرفي، والتي يبدو أن غيابها عن بعض الدارسين لفكره يعود إلى تداخلها وتماهيها مع مصطلحات فكرية أخرى كتداخل الدوائر في المربعات أو العكس، وبالتالي فإن فصلها عن بعضها، وتقديمها في نسق معرفي يخدم أهداف هذا البحث يحتاج إلى شيء من النظر والاجتهاد الدقيق.

نشير بداية إلى أن المشاريع التي جاء بها رواد الإصلاح في الوطن العربي والعالم الإسلامي كانت محكومة بقانون (ملأ الفراغ، وترقيع الخرق) ولم يكن الفراغ المقصود بالملإ فراغا ماديا، بل كان فراغا معنويا له انعكاسات سلبية في عالم المادة، بما في ذلك الإنسان في امتداده الروحي والأخلاقي، حيث رأى هؤلاء المصلحون انفصاما بين الإنسان وروحه أو بين الإنسان وأخلاقه وقِيَمه أدت إليه جملةٌ من الأسباب الموضوعية وتجلت آثارُه في مجموعة من المظاهر السلبية، وقد حاولوا من خلال التشخيص، وصفَ الحلول المناسبة لهذه الحالة المرضية الطارئة، كلٌّ من منطلقه وزاوية نظره ومنهجه في الإصلاح والتغيير، ونحن في هذا البحث سنحاول تسليط الضوء على هذه القضية من خلال الجهود التربوية والأخلاقية للمفكر الجزائري مالك بن نبي للأسباب الآتية:

أ/ أن الرجل عاش مرارة الانفصام بين المسلم وقيمه ومبادئه، من خلال النماذج النشاز التي باعت ضمائرها ودينها وأخلاقها للمستعمر الفرنسي فتحالفت معه ضد الوطن والأمة!

ب/ واقع الحال وما تعيشه الأمة من أزمة اغتراب الإنسان عن ذاته، بسبب إهمال منظومات صناعة الإنسان للبعد الروحي القيمي للإنسان من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب ممارسات الاستبداد الذي امتهن كرامة الإنسان من ناحيتين متناقضتين: الأولى: اختزل مطالبه الدنيوية وجعله يسعى لتحقيق أدنى متطلبات الحياة. والثانية: تسويق المعنى السلبي للزهد والتصوف القائم على الاستقالة من الحياة الدنيا والاشتغال بما تحت الأرض وما وراء الغيب، وهو الأمر الذي يصدق عليه قول الشاعر: وَهل أفسد الدّين إِلَّا الْمُلُوك ... وأخبار سوء ورهبانها[2]

ج/ البحث عن الحلول التي قدمها مالك بن نبي في إطار الإشكالية التي يثيرها عنوان هذا البحث والتي يمكن صياغتها على النحو الآتي: ما موقف مالك بن نبي من التصوف كمسلك من مسالك فهم الدين وتمثله في مجالات الحياة المختلفة؟ وما موقع الجانب الروحي في معادلة الحضارة التي صاغها مالك بن نبي؟ وكيف استثمر مالك بن نبي الجانب الروحي في الإسلام من أجل بعث الفعالية الأخلاقية في نفس المسلم الجزائري الذي عاش انفصاما بينه وبين أخلاقه وصار يعيش مرحلة الغريزة منذ عصر الموحدين إلى زمان مالك بن نبي، بل وإلى زماننا هذا؟

**2. ابن نبي والتصوف (النشأة ومعالم الانتماء إلى المرجعية)**

لقد نشأ مالك بن نبي نشأة دينية منذ الصغر؛ فقد كان جده أحد أركان الطريقة العيساوية، وكان يصطحبه معه إلى الحلقات التي تحييها الزاوية العيساوية كل يوم سبت بانتظام حيث تُعرض هناك الكرامات المدهشة والعجائب.[3]، كما تعلّم ابن نبي على يد أحد رجال هذه الزاوية " الضرب على (النقارات). وهي عبارة عن قطعة موسيقية مؤلفة من طبلين صغيرين مركزين على قطعة خشبية يضرب عليهما بعصا صغيرة، وكانت هذه القطعة تستعمل في مجالس رجال الطريقة العيساوية في قسنطينة والقادرية في تبسة على السواء."[4]، ويحدثنا ابن نبي عن تجربته الصوفية في الزاوية العيساوية فيقول: "وشيئاً فشيئاً ألفت وجوه رجال تلك الطريقة، وأصبحت أذهب معهم في كل مرة تقام فيها خارج الزاوية في منزل أو عائلة، وكنت أجلس معهم في الحلقة المؤلفة من الجوقة والعازفين، ولأنني كنت في الرابعة عشرة من عمري فقد كان صوتي كصوت ديك أزغب الحواصل يثقب الآذان. كان الإخوان ينتظمون في الحضرة وبينهم (الشاوش) وهو الشخص الذي يتولى إدارة الحلقة، فيدعو كلاً بدوره ليدخل في الجذب حالة الوجد فينتصب واقفاً، ويبدأ في حركات الذكر التي تتناغم مع إيقاع الشاوش إذ يضرب على يديه فيشير إلى مراحل الذكر.أما المقدم سيدي (علي بن الفول) فكان يجلس في ركنه من المجلس محاطاً باحترام الجميع كأب روحي، وهو دائماً معهم في شؤونهم صغيرها وكبيرها، معهم في حفلات زواجهم وختان أبنائهم وكذلك المآتم."[5]، وحين أُغلق مقر الزاوية بسبب الظروف العصيبة التي مرت بها قسنطينة، فقد تأسف ابن نبي كثيرا على ذلك الغلق وقال: " تابعت المأساة القسنطينية فصولها، فلم يعد التحدث عن العيسوية إلا قليلاً، وحينما يتاح لي المرور أمام الزاوية المغلقة كان شيء ما يعصر قلبي، ففي الطور الذي يحدث فيه التغيير يصبح فيه الإنسان متناقضاً، فهو من جهة يهدم الماضي بيديه ومن جهة أخرى يستشعر في ذاته ضغط ذلك الماضي وأثره، ولست أدري إن كان ذلك صحيحاً أم لا، إنما على كل حال كان هذا هو الوضع بالنسبة لي."[6]

ويذكر لنا في مذكراته أن تجربته الصوفية المرتبطة بباب (الإحسان) قد بدأت مبكرا على يد جدته لأمه، وهي التجربة التي كانت جامعة بين التنظير والتدبير أو بين المعرفة والسلوك، خلال ما كان يسمعه من جدته من القصص والحكايات التي كان محورها العمل الصالح وما يليه من ثواب، وعمل السوء وما يتبعه من عقاب، وقد كانت تلك القصص المستمدة من التراث الديني للفرد الجزائري تعمل على تكوينه التربوي والأخلاقي دون أن يدري بذلك وهو طفل صغير، ولكنه استفاد منها بعد ذلك أن الإحسان الذي انبثق من بوتقته علم التصوف في مرتبة عليا من الأخلاق الإسلامية، هذا على مستوى التنظير أو المعرفة، وأما على مستوى التدبير والسلوك فيذكر لنا بن نبي أن إحدى حكايات جدته عن الإحسان جعلته وهو ابن السادسة أو السابعة من عمره يقوم بعمل يصفه بأنه كان أسمى عمل قام به في حياته، ذلك أن عائلته كانت فقيرة وكان أبناء الفقراء يعانون الجوع في أغلب مراحل حياتهم، ولأن أمه كانت تقوم بأعمال إضافية كالخياطة التي تجني منها بعض المال، فقد كانت تقوم بإكرام ابنها مالك وشقيقته يوم الجمعة بقطعة من (الرفيس)

وهي حلوى تبسية تصنع من الطحين والسكر والتمر والزيت، ولنترك ابن نبي يحكي لنا كيف انعكست التربية الصوفية التي تلقاها من جدته على سلوكه من خلال قصته مع قطعة الرفيس اللذيذة حيث يقول: "في ظهيرة يوم الجمعة أخذت نصيبي من الرفيس وأخذت أقضمه بنهم ولذة، وفجأة سمعت بباب الدار سائلاً ينادي: «أعطوني من مال الله» ولم أكن عندها أكلت من فطيرتي أكثر من النصف، ومع ذلك بادرت بإعطائها له عندما تذكرت واحدة من حكايات جدتي عن الإحسان وثوابه."[7] والأهم من هذا ما يذكره بن نبي من أن الرصيد الروحي والأخلاقي الذي أخذه من جده وجدته اللذان كانا "يتشبثان برصيدهما التاريخي الأصيل، بتلك التقاليد وهذه الروح التي لولاها ما استطاعت البلاد أن تعود لصياغة تاريخها من جديد"[8]

فالتصوف عند بن نبي لا يختلف عن تصوف من سبقه من علماء هذا الفن، إذ يشكل عندهم جميعا تجربة وحالا ولهذا كان الإمام الجنيد رحمه الله كثيراً ما ينشد:

علم التصوّف علم ليس يعرفه ... إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف[9]

وهو ما عبر عنه ابن نبي بالعلم الذي يعمل على تغيير النفس والذي معناه "إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف"[10]، كما أنه: "الميدان الذي نقدر فيه الأشياء في نوعيتها وخصوصيتها، كل شيء بميزته، وكل شخصية متصوفة بما يميزها"[11] ويستحسن بن نبي أن نطلق على منهاج (التصوف) عنوانا وظيفيا يتناسب ومعطيات الراهن الاجتماعي الذي غلب عليه البعد عن الله وضعف الصلة به، ولعلنا لا نكون مبالغين في هذا السياق إن قلنا بأن مالك بن نبي قد سبق عصره حين تحدث بأسلوب زمانه عما صار يعرف اليوم بالتنمية البشرية، وهي التي تستهدف النفس البشرية تزويدا لها بالطاقة الإيجابية وإزالة للطاقة السلبية المتراكمة عليها بفعل البعد عن الله فيقول: "إن مشكلتنا ليست في أن (نبرهن) للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة....هو من شأن علم لم يوضع له (اسم) بعد، ويمكن أن نسميه (تجديد الصلة بالله)[12]، ويقول أيضا: "لا بد لنا- قبل كل شيء- من تعريف فكرة التوجيه، فهو- بصفة عامة- قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف فكم من طاقات وقوى لم تستخدم، لأننا لا نعرف كيف نكتلها! وكم من الطاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها، حين زحمتها قوى أخرى، صادرة عن نفس المصدر، متجهة إلى نفس الهدف! فالتوجيه هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت. فهناك ملايين السواعد العاملة، والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل، المكون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية، والإنتاجية، المناسبة لكل عضو من أعضائه"[13] ويعرف بن نبي المتصوف بأنه إنسان: "باحث عن الحقيقة الخفية، بل هو أحياناً أكثر الباحثين حرارة وروعة في بحثه عن الحقيقة، يبحث عنها في خفايا نفسه الحميمة، وأبعد من هذا المجال النسبي، في سر ذلك الأفق النائي الذي تسبح فيه الحقائق

المطلقة."[14]

والتصوف عند بن نبي متغلغل في كيان المجتمع الجزائري ويشكل رافدا معرفيا هاما يعمل على أخلقة الحياة الاجتماعية للشعب الجزائري: "بالنسبة إلى مجال ثقافة دينية- كالثقافة الإسلامية- يتضمن بجانب تصوف تاريخي يُرى بأسماء لامعة، تصوفاً حياً أو معاصراً، تبدو آثاره حتى وراء ملامح مؤدب الكتاتيب البسيطة بالأرياف الجزائرية، في صور جميلة تدل على أن الحياة الإسلامية ما زالت، رغم الفقر الروحي المنتشر في العالم، ما زالت توقظ رسالات صوفية تستحق الإعجاب، وتمدها من الإشعاع الروحي بما يناسب حاجاتها والتزاماتها..."[15] ولذا نراه يبدي الاعتزاز بمكونات المرجعية التي رآها في أجداده والتي ساهمت في الحفاظ على هوية المجتمع وكيانه المستقل أمام محاولات الهيمنة والاحتواء التي مارسها الاستعمار الفرنسي "كان جدي القديم وجدتي يتشبثان برصيدهما التاريخي الأصيل، بتلك التقاليد وهذه الروح التي لولاها ما استطاعت البلاد أن تعود لصياغة تاريخها من جديد."[16]، وهي المرجعية ذاتها التي كانت توحي لابن نبي وأقرانه من رواد الكتاتيب أن شرب الماء الذي تمحى فيه ألواح القرآن فيه البركة المستمدة من كلمات القرآن، وقد عبر عن ذلك بالقول: "وإن من ذكريات تلك الأيام ما لا يزال في مخيلتي، فقد كنت كباقي التلاميذ أغسل كل صباح لوحي الحجري في بركة ماء صغيرة، تقع عند زاوية المدرسة، ومتى تشبعت مياه البركة بذلك الحبر الذي كنا نكتب فيه وهو الصماغ - وكان المعلم يصنعه عادة بنفسه مستعملاً دهن الخرفان- كنا نعمد إلى نقل المياه الملوثة بدلوٍ لطرحها في مكان خاص. شربت ورفاقي مرة من هذه المياه الملوثة لاعتقادنا بأنها كانت تضم كلمة الله. لقد كان قصدنا من ذلك نبيلاً ومؤثراً، فما أردناه هو أن نشرب كلمة الله المقدسة بالذات"[17] نعم إنه الاعتزاز بالمرجعية التي حفظت للجزائريين دينهم وهويتهم، وكانت بمثابة الصخرة الصلبة التي تكسرت عليها كل محاولات الهيمنة الثقافية، وهي ذات المرجعية التي اكتشفها فرانز فانون في القرويين الجزائريين والتي عبر عنها علي شريعتي بمصطلح "التعصب" أي التعصب للهوية الثقافية الإسلامية، والتمسك بها والمحافظة عليها أمام محاولات المسخ الثقافي الصادرة من المستعمر الفرنسي، ولذلك حينما يتحدث شريعتي عن تمسك الشعب الجزائري بإسلامه وجزائريته أمام محاولات الطمس الاستعماري، نجده يتساءل قائلا... «ما السبب الذي أذهب سعي فرنسا الذكي والمتعدد الجوانب من أجل خلق جزائر فرنسية أدراج الرياح؟ ويجيب مباشرة السبب في كلمة واحدة هو «التعصب» هو الذي كان الاستعمار قد عرف للوهلة الأولى أنه مثل الحصن الحصين، قد وقف في مواجهة نفوذه ودخوله المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية»[(18)].

والسبب في قوة هذا الحصن، وصموده أمام الاستعمار، أن أجدادنا كانوا يرون المحتل الغاصب كله شر، لا خير يأتي من ورائه، ما دام قد احتل البلاد ونهب خيراتها، فلم يكن يدفعهم الغرور بمظاهر تمدنه وتحضره إلى تقليده في أساليب الحياة، ولذلك فإن فرانز فانون[19] كان قد صادف في الجزائر حقيقة اجتماعية متميزة أيام الاستعمار، وهي أن القرويين كانوا يبرزون حالة من الرعب تجاه كل من كان غريبا

عنهم، من نتيجتها حالة هروب إلى الداخل، دون أن يحاولوا معرفة هذا العنصر الغريب [20] الذي يمكن أن يكون فرق الصحة الفرنسية التي تقوم بتطعيمهم وعلاجهم ويصف شريعتي رد الفعل هذا بأنه منطقي ودال على وجود الحياة الثقافية المستقلة في المجتمع حيث يقول: « هذا الفرار من الجديد والفرار من الأجنبي، والانكماش داخل النفس...رد فعل منطقي وطبيعي وإيجابي لمجتمع أحس ويحس دائما أنه مجال لهجوم الأعداء والخطر في الإغارة والدليل على أن الجسد حي أنه عندما يتعرض لأذى ينكمش على نفسه » [21]

ثم إن بن نبي يؤمن بالكشف الصوفي بوصفه طريقا للمعارف " إن الإلهام موجود عند الصوفية بل هي أساليب لها طرقها وقواعدها، فالمسلم إذا ما احتاج أن يتبين أمرا ما، استخار فيه الله ليلهمه عن طريق رؤيا في الحلم."[22]

ولابن نبي نماذج صوفية وتربوية مبيّنة في إطار ثلاثية الزمان والمكان والإنسان يستلهم منها القدوة في الاعتزاز بالانتماء للمرجعية الوطنية، ومنها الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر والشيخ مولود بن موهوب وأستاذه عبد القادر المجاوي وغيرهم ممن شكلوا الغرسة التي انتقلت إلى الأجيال من المدرسيين ومنهم مالك بن نبي، وقد أينعت ثمار تلك الغرسة في الحركة الإصلاحية الناشئة في الجزائر، كما يذكر ابن نبي في مذكراته[23]. يقول بن نبي: " وقد تولى الشيخ (مولود بن موهوب) جذب أفكارنا وعقولنا إلى خط تلك الحركة التقليدية القديمة، ولكنها وجدت في أرواحنا عناصر جديدة أضيفت إلى بنائها."[24]

ولا يخفي علينا ابن نبي ذلك الصراع الذي دارت فصوله بين أنصار التيار التقليدي المنتمي إلى المرجعية الجزائرية الأشعرية الجنيدية والذي يتخذ من قاعدة " الترك لا يقتضي التحريم"[25] منهجا في التعامل مع "البدع الحسنة"، والتيار الوافد على أيدي الجزائريين المتأثرين بالدعوة السلفية، والذي يتخذ من قاعدة " الترك يقتضي التحريم" في التعامل مع " البدع الحسنة" فيقول ابن نبي: " وحتى مواكب الجنازات أضحت في أغلب الأحيان صامتة، فلم يعد الناس ينشدون قصيدة البردة وراء نعش الميت، لقد أضحت تصرفات الناس لهذه الجهة ترتبط بموقفين عقائديين من جهة ومن جهة أخرى برجلين: فالعائلات التي تجري احتفالات زواجها ومواكب دفن موتاها وفق الطريقة القديمة، تبدو صواباً أو خطأً وكأنها من أنصار الشيخ (سليمان). أما العائلات التي تتبع العادات الجديدة في تلك المناسبات فهذه تعد من مؤيدي الشيخ (العربي) لقد بدأ الناس يأخذون بشكل غامض منحى العودة إلى تلك الطريقة الصحيحة التي يمثلها الشيخ، والتي سيطلق عليها فيما بعد اسم (الإصلاح) أو (السلفية)، أما الشيخ سليمان فقد كان مرناً يوفق بين تلك الطريقة الصحيحة والعادات السائدة لكنه مع ذلك يمارس عليها تأثيراً مصححاً"[26]

ونحن نرى أنه من المؤكد أن مرونة الشيخ سليمان في التوفيق بين الشريعة والعادات السائدة، هي التي تتناسب مع التكوين العقلي والوجداني للشعب الجزائري، ولذلك لم نجد أن ابن نبي قد انتقدها أو أدار ظهره لها بمثل ما فعل مع العربي التبسي وطريقته (السلفية) التي أعلنت الحرب على ما سمته (شرك القبور) مع غضها الطرف عن (شرك القصور) وقد انتقده ابن نبي نقدا لاذعا حين أصبح لعبة في يد الإدارة الفرنسية

فيقول: "لم يعد (البوليتيك) الجزائري، ومن ضمنه الحركة الإصلاحية (رغم حسن نية ابن باديس) إلا لعبة في متناول الإدارة التي كانت تمسك بكل الخيوط، تأملوا! بن جامع سكرتير الفيدرالية وبن جلول رئيسها، ولم يكن (العلماء) إلا أنصارا لهذه النخبة الرائعة، ولم يكل الشيخ العربي ولم يمل من تحذير الناس مني وتأليبهم ضدي: - نحن نفتقر إلى رجال لاستخلاف بن جلول، وطالما ألححت وأنا ألجأ إلى لغة علم الكلام وهي اللغة الوحيدة التي يمكن أن يفهمها (عالم)، فأقول: بما أنكم تتمسكون بهذا الرجل الذي يبدو لكم (وحيدا) فلماذا لا تعبدون إبليس فهو أيضا وحيد؟ كان الشيخ العربي ينتفض غيظا عندما أطرح عليه هذا السؤال، السؤال الوحيد الذي يزعزع عقلية طالب الكتاتيب في الجزائر، لأنه عندما يؤكد عدم وجود رجل لتعويض بن جلول، فإنه لا يدرك أنه يخدم بالضبط أهداف الإدارة الاستعمارية التي تتوفر من جانبها على خبراء يعرفون تقييم الرجل من نظرة واحدة"[27] ويقول في السياق نفسه: "والهوس بـ (الرجل الأوحد) فكرة مشتركة لدى (العلماء) الجزائريين، وقد يوحي الأمر بأن في تكوينهم المشترك في الأزهر أو الزيتونة عاهة أصلية، فسنوات بعدها، وبعد أن استولى الإبراهيمي على إرث الشيخ الجليل ابن باديس، أشاع حوله بأن ليس هناك أي إنسان يمكن أن يخلفه إذا قدر وتوفي. أه! كم ستبتهج الإدارة الاستعمارية وتزدهي، وعلى رأسها ماسينيون، بوجود هؤلاء المتحمسين لإقناع الشعب الجزائري بأنه عقيم وبأنه لا يمكن أن يلد رجالا".[28]

ومن ناحية أخرى لم يكتف مالك بن نبي بمجرد إعلان الانتماء إلى الأعلام الذين سبق ذكرهم، بل استدرك على من وصف الحركة الإصلاحية في الجزائر بأنها صورة طبق الأصل لحركة الإصلاح في المشرق، وهو خطأ معرفي وتاريخي بحسب مالك بن نبي الذي يقول: "كان هناك اتجاه عام لرد هذه الحركة إلى أصول شرقية حديثة كالتي أبدعها جمال الدين ومحمد عبده، ولكن كان يعيبها أنها لا تأخذ باعتبارها التقاليد المحلية"[29]، كما يتأسف بن نبي على الإهمال الذي لاقاه الدرس الصوفي على مستوى تبليغه للعالم الغربي من قبل العلماء والباحثين، ويستثني من ذلك جهود العلامة محمد إقبال التي استطاعت أن تبلغ رسالة مشرقة للغرب عن حقيقة التصوف الإسلامي الباعث للحركة والحياة في أوصال الحضارة الإنسانية بصفة عامة والذي رده إلى "عجز الطبقة المثقفة المسلمة، التي لم تقم، باستثناء محمد إقبال، بتبليغ القيم الإسلامية إلى لغات الثقافة العصرية في العالم، بحيث ضاعت عليها الفرصة لتساهم في التراث الروحي العالمي في زمننا."[30]

### 3. من التصوف السلبي إلى التصوف الإيجابي (التصوف من الإهمال إلى الإعمال)

يعتبر التصوف كغيره من علوم الشريعة التي نبتت على ضفاف الوحي، وصارت مسألة صحتها أو مرضها بعد ذلك مرتبطة بمدى صلتها بمنابع الإمداد الوحياني، ومن هذه القاعدة يشير ابن نبي إلى بعض صور التصوف السلبي المرَضي ومنها صورة الاستقالة من الحياة وراء مظلة التصوف حيث يقول: "المجتمع الإسلامي واجه أزمة فقدان المسوّغات منذ زمن مبكر، وأن الحركات الإصلاحية التي نشأت فيه

في مختلف صورها، تعبر عن هذه الأزمة بما فيها الحركة الصوفية التي تمثل إلى حد ما الدوافع السلبية، التي تدفع إلى انتحار الفرد الذي فقد مسوّغات حياته، فالصوفي يخرج أيضاً عن النظام الطبيعي للحياة، ويتخلص من مسؤولياتها عن طريق الأوراد والسبحة، كما يتخلص المنتحر العادي عن مسؤولياته بوسيلة الخنجر، فالصوفي ينتحر بوسائل الروح"[31] ومن صوره السلبية أيضا القول بوحدة الوجود المؤدية إلى الكفر، بسبب ما يدعيه أصحابها من حلول الذات الإلهية المقدسة في الموجودات، وفي هذا يقول ابن نبي "كما نعلم أيضاً أن هذه التجربة الذاتية، قد تؤدي أحياناً إلى كارثة عندما ينتهي الطواف إلى فكرة «وحدة الوجود» وهي الكارثة التي تنتظر المتصوف عندما تضيع معالم الطرق أمامه، في حالة من أحواله، فيفقد فيها الاتزان النفسي، فيصبح لا يفرق بين الحقيقة النسبية التي تكنها نفسه في عالم الـ «أنا» المحدود، والحقيقة المطلقة التي يكنها ملكوت السموات والأرض في عالم لا حدود له .. هكذا يخلط بين هاتين الحقيقتين كما حدث لمؤسس البابية الذي وقع في مثل هذا الخبط فخرج به عن الجادة إِلى أحقر صور الكفر."[32]

وهناك من يعتبر "وحدة الوجود" التي تضم "وحدة الشهود" من المشارب الصوفية المهمة وهي تعني: حصر النظر في وجود "واجب الوجود"، أي أن الموجود الحق هو: "واجب الوجود" سبحانه فحسب، وأن سائر الموجودات ظلال باهتة وزيف ووهم لا تستحق إطلاق صفة الوجود عليها حيال "واجب الوجود" لذا فان أهل هذا المشرب يذهبون إلى اعتبار الموجودات خيالا ووهماً، ويتصورونها عدما في مرتبة ترك ما سواه، أي: "ترك ما سوى الله تعالى" حتى أنهم يتطرفون ويذهبون إلى حد اعتبار الموجودات مرايا خيالية لتجليات الأسماء الحسنى.[33]

ويرى بديع الزمان النورسي أن أهم حقيقة يحتويها مشرب "وحدة الوجود" هي: أن الموجودات الممكنة تصغر وتتضاءل عند أصحاب المشرب من كبار الأولياء الذين وصلوا إلى مرتبة حق اليقين بقوة إيمانهم بحيث تنزل الموجودات عندهم إلى درجة العدم والوهم، أي كأنهم ينكرون وجود الكون بجانب وجود الله تعالى الذي هو واجب الوجود[34].

ويذكر لنا النورسي محاذير ومخاطر عدة لهذا المشرب وأهمها : أن أركان الإيمان ستة، وأنه بالإضافة إلى ركن الإيمان بالله الذي تتجلى فيه "وحدة الوجود" إلا أن للإيمان أركانا أخرى تستدعي وجود الممكنات، بمعنى أن هذه الأركان المحكمة لا يمكن أن تقوم على أساس خيالي، ومن هنا يدعو النورسي صاحب هذا المشرب ألاّ يصحب معه هذا المشرب، وألاّ يعمل بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة، وأن عليه ألا يقلب هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي إلى أسس عقلية وقولية وعلمية، ذلك لأن الدساتير العقلية والقوانين العلمية، وأصول علم الكلام النابعة من الكتاب والسنة المطهرين لا يمكنها أن تتحمل هذا المشرب، ولا تتسع لإمكانية تطبيقه، ولهذا يجزم بديع الزمان النورسي بانعدام هذا المشرب في أهل الصحوة الإيمانية من الخلفاء الراشدين، والأئمة المجتهدين، والعلماء العاملين من أجيال السلف

الصالح من هذه الأمة، وهو ما يعني أن النورسي لا يعد هذا المشرب في أعلى المراتب وأسماها، بل قد يكون ذا علو إلا أنه ناقص في علوه، وقد يكون ذا حلاوة مغرية ولكنه لاذع المذاق، ولظاهر حلاوته، ولجمال إيحائه لا يرغب الداخلون فيه في الخروج منه؛ ويتوهمون ـ باستشرافات نفوسهم ـ أنه أعلى المراتب وأسماها[35].

والتصوف الذي لا يؤدي إلى أخلقة الحياة الاجتماعية وإعطائها الفعالية اللازمة للنهوض من سبات الاستقالة من الحياة هو تصوف سلبي لا حاجة للمجتمع الإسلامي به، وهو ما يفهم من قول ابن نبي: "والتصوف الذي قاد إلى دروشة المرابطين وشعوذتهم، لا يمكن أن يقدم لنا الأساس الضروري للإصلاح، عندما نحث جهودنا إلى النهضة، فهو لا يستهدف سوى تطهير بعض الأنفس من الخطايا، على حين يهدف الإصلاح إلى توفير الدافع الداخلي لدى جماهير الشعب، تلك الجماهير المتعطشة إلى (انتفاضة القلب)، كيما تنتصر على ما أصابها من خمود"[36]

إن التصوف الذي يدعو إلى الخمول وإسقاط تكاليف اللحظة التاريخية لا حظ له من الإيجابية، وهو تصوف دخيل على أمة الجهاد والحركة، ولذلك يرفضه ابن نبي ويجعله قرينا للاستعمار وحليفا له في احتلال العقول والقلوب ليسهل على الاستعمار ترويض أصحابها واستعمالهم في مصالحه "والإصلاحُ الجزائريّ نفسُه، لم يكن بالإجمال سوى مجادلة ضدّ المرابطية والاستعمار."[37]

ويحاول ابن نبي أن يضع الدواء على الجرح حين يعطي لنا توصيفا أخلاقيا لأزمة ( الأنا) عند المسلم، وتراوحها بين التضخم والتورم بعد أن كانت في وضعها السليم الطبيعي عند الرعيل الأول من الصحابة "فلقد يبدو المجتمع في ظاهره ميسوراً نامياً، بينما شبكة علاقاته مريضة، ويتجلى هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد. وأكبر دليل على وجوده يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية، عندما يختفي (الشخص) أو خاصة عندما يسترد (الفرد) استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي. فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلاً، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين، في حالة الصحة يكون تناول المشكلات من أجل علاجها هي، أما في الحالة المرضية فإن تناولها يصبح فرصة لتورم (الذات) وانتفاشها، وحينئذ يكون حلها مستحيلاً، لا لفقر في الأفكار أو في الأشياء، ولكن لأن شبكة العلاقات لم تعد أمورها تجري على طبيعتها."[38]

إننا نعتقد أن ابن نبي لا يرفض التصوف كمسلك من مسالك فهم الدين وتمثله، وقد تبين لنا مما سبق أن النقد الذي وجهه ابن نبي للتصوف قد كان نقدا منصبا على الممارسات السلبية التي يقوم بها بعض الصوفية في السياقات التاريخية التي عاش فيها ابن نبي، وكثير من ذلك النقد كان متأثرا فيه بما كتبه وقاله رجال الجمعية من أمثال البشير الإبراهيمي[39] والطيب العقبي وغيرهما، ولكن هذا لا ينفي إشادة ابن نبي بالتصوف الذي كان مصدرا للشرارة الروحية في النهضة الإسلامية من بداية الدعوة إلى ما بعد عصر

الموحدين، وهو الذي يقول: "يبدو أن الحركة الإصلاحية في عمومها، لا تملك اليوم ما ظفرت به في بدايتها من نفثة روحية وانتفاضة تصوفية"[40]، وهو يقصد بذلك مرحلة الروح في مخطط الحضارة الإسلامية الذي تصوره ابن نبي من لحظة البعثة إلى الفترة التي عاش فيها وهي فترة القرن العشرين، ولهذا فلا ابن نبي ولا غيره يمكنه أن يقصي أو ينفي هذا الركن الهام من أركان الدين الإسلامي المتمثل في ركن الإحسان الذي اصطلح عليه بمصطلح "التصوف" لمجرد وقوع بعض التصرفات والممارسات التي يستشف منها الغلو والتطرف في تمثل هذا الركن الديني المتين، ذلك أن الموضوعية تدعونا في كل الأحوال ومع كل القضايا إلى معالجة أي انحراف يقع في مسيرة الإنسان بالقضاء على الانحراف لا على الأصل الذي وقع فيه الانحراف، وإلا لما أبقينا أصلا من الأصول التي تقوم عليها الوظيفة الوجودية للإنسان، وهذا منهج قرآني أصيل ومحكم، قد ورد التنبيه إليه في كثير من الآيات القرآنية، وهذا ما نفهمه من قول الرازي مثلا: "اعلم أن أكثر الخلق وقعوا في أمراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار المرضى إذا كانت مملوءة من المرضى، والأنبياء كالأطباء الحاذقين، والمريض ربما قد قوي مرضه فلا يعود إلى الصحة إلا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في أكثر الأمر، إلا أن الطبيب إذا كان مشفقا حاذقا فإنه يسعى في إزالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه فإن لم يقدر على إزالته فإنه يسعى في تقليله وتخفيفه. إذا عرفت هذا فنقول: مرض حب الدنيا مستول على الخلق ولا علاج له إلا بالدعوة إلى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق على النفوس، وقل من يقبله وينقاد له. لا جرم أن الأنبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض وحمل الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم مما ينفع في إزالة هذا المرض"[41]

## 4. التفسير الأخلاقي لأزمة عصر ما بعد الموحدين

يرى ابن نبي أن المجتمع الإسلامي يعاني من أزمة حضارية تمتد في الماضي إلى عصر ما بعد الدولة الموحدية التي قامت في الغرب الإسلامي، وقد حاول ابن نبي أن يشخص هذه الأزمة في الجانب الأخلاقي فكتب يقول: " إن مجتمعاً معيناً لا يمكن أن يؤدي نشاطه المشترك دون أن توجد فيه شبكة العلاقات التي تؤلف عناصره المختلفة؛ النفسية والزمنية وإن كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي، والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع. فمن الطبيعي إذن أن نعد القيمة الخلقية عنصراً جوهرياً في النشاط المشترك الذي يتم بفضل وجود شبكة العلاقات الاجتماعي، هنا تواجهنا مشكلة ذات طابع تكويني هي: هل ينتج المجتمع تلقائياً القيمة الخلقية التي تدفع تغييره في اتجاه غايته.. ؟"[42]

عندما تأخذ العلاقة بين الأخلاق والمجتمع وضعها الطبيعي السنني، تنتج لنا مجتمعا يحكمه قانون الروح، ومعنى ذلك أن القيم الروحية والأخلاقية هي من يضبط بوصلة الفرد والجماعة وليس العكس، ولهذا القانون حسب بن نبي مؤشرين مستفادان من الوحي ومن نموذج الرعيل الأول، أحد هذين المؤشرين اجتماعي والآخر نفساني.

المؤشر الاجتماعي لقانون الروح: هو المؤشر الذي تكون فيه شبكة العلاقات الاجتماعية في أكثف حالاتها، ويفسر بن نبي هذه الكثافة بأنها ما توحي به عبارة (البنيان المرصوص) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 61/ 4].[43]، وإذا ما أردنا أن نشرح هذا المؤشر بمقاربات الراهن أمكننا القول بأن العلاقة بين شبكة العلاقات الاجتماعية وقانون الروح علاقة طردية، ويدل كلاهما على الآخر، بحيث كلما كان قانون الروح حاضرا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية أقوى وأمتن، وهو ما تشير إليه الآية القرآنية العظيمة: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال 62، 63]

وبالمقابل كلما كان قانون المادة حاضرا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية أضعف وأوهن، وهو ما تشير إليه الآية القرآنية العظيمة: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ [التوبة 25]

المؤشر النفسي لقانون الروح: هو المؤشر الذي يُظهر الفرد خلال مرحلة الروح في أحسن ظروفه، بحيث يكون نظام أفعاله المنعكسة في أقصى فاعليته الاجتماعية، وتكون طاقته الحيوية أيضاً في أتم حالات تنظيمها.

ويرى بن نبي أن هذين المؤشرين كانا حاضرين بقوة في مجتمع الرعيل الأول حين كان "دور الدين في حيويته، وهو يحقق عمله الاجتماعي، بطريقة غير مباشرة أو غير أساسية، حين يهدف إلى غاياته الخاصة: فالدين حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان بالله، وهو يخلق بعمله هذا أيضاً- كما بينا- شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، وأن يؤدي نشاطه المشترك: وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض. فإذا قال الدين قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات 51/ 57] فإن الله عز وجل لم يرد بهذا القانون أن يفصل الناس عن الأرض، ولكن أراد أن يفتح لهم طريقاً خيراً ليضطلعوا بعملهم الأرضي. والتاريخ يرينا مدى القدرة التي امتاز بها أصحاب الدين، وخاصة المسلمون، حين ساروا في هذه الطريق.[44]

ولكن حين تترهل العلاقة بين الأخلاق والمجتمع بسبب ترهل الأخلاق أو فقدانها أو انفتاحها على ما تطلبه النفس البشرية من شهوات وملذات بحيث تصبح هذه المتطلبات هي معيار الأخلاق وليس العكس، فإننا نصبح حينئذ أمام مجتمع مرشح للانهيار أو الاندثار، كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإذا هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

قال ابن نبي: "وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين، حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه، بل إن محدثي مثل هذا الإخلال، أولئك الذين يدعون- مثلاً- إلى حرية

الأخلاق من أجل التقدم، ليسوا في أعماق نفوسهم سوى أطفال استثارتهم حواسهم، وهم لا يرتابون لحظة فيما يجرونه على المجتمع من أخطار هائلة، فهم يلعبون بحواسهم كما يلعب الأطفال بأعواد الكبريت دون أن يشكوا في أنهم يتركون حيث يلعبون بوادر حريق يلتهم المدينة بأسرها."[45]، وبعد القراءة المتفحصة لمؤلفات ابن نبي تبين لنا أن الرجل قد شخص المشكلة الأخلاقية في مجموعة من الصور منها:

أ/ فقدان الاستشعار بالمسؤولية "القضية إذن ليست قضية فقر ولكن عدم شعور بالمسؤولية.

فالمجتمع الإسلامي عندنا لم يشعر بعد بمسؤوليته"[46] "وعلينا واجب آخر، هو أن نكشف عن كل ما يخرب المجتمع ويعرقل سيره. فإنه إذا كان الحرام بيناً والحلال بيناً، فإنه في بعض الأحايين يتخفى الحرام في أثواب كثيرة، فإذا كان بعضنا يبني فإن علينا ألا ندع الآخرين يخربون."[47]

ب/ فقدان فعالية العقيدة والإيمان في الأخلاق والسلوك: "ونحن نلمس هنا كرَّةً أخرى عن طريق المراجعات، وجود ثغرة تُغْزَى للنهضة الإسلامية التي وضَعتْ بطريقة ضمنيَّة مشكلة متعلِّقة بالإيمان في مكان هي غير مثارة فيه؛ فالمسألة لا تتمثَّل في تلقين أو في إعادة تلقين المسلم عقيدتَه؛ ولكنها تتمثَّل في إعادة تلقينه استخدامها وفعَّاليتَها في الحياة. إلا أن المصلحين قد أغفلوا وضع هذه المشكلة"[48]

"وفي البنية الأخلاقية للمجتمع الذي يكف عن تعديل سلوك الأفراد. وبقدر ما تتحرر هذه النزعة من قيودها في المجتمع يكف التحرر الأخلاقي الذي يمارسه الفرد في أفعاله الخاصة، شيئا فشيئا.

ولو استطعنا في هذا الحين بوسيلة دقيقة المراقبة لهذه الظروف النفسية بغية تتبع نتائج هذا الاطراد- كما هو الشأن في وسائل المراقبة التي تتوفر في مختبرات علوم الطبيعة- لأمكن أن نلاحظ انخفاضا في مستوى أخلاق المجتمع. أو أننا نلاحظ -وهو ما يؤول إلى النتيجة نفسها- نقصا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية"[49]

ج/ غياب التوازن الأخلاقي الذي يعين المسلم على الوسطية بين التقشف والتبذير "على أنه إذا كان من العبث أن أركب الجمل في العصر الذي انتشرت فيه السيارات، فإنه من العبث الأكبر والتبذير للأموال، أن أقتني أفخر السيارات وأعظمها، لأنه لا حاجة بي إلى هذا النوع من السيارات، طالما أستطيع الاكتفاء بأقل منها درجة. فنحن في مرحله البناء ينبغي لنا أن نقتصد في إمكانياتنا حتى نستخلص منها أقصى ما نستطيع من فائدة."[50]

د/ فقدان المسلم لاستقلاله الأخلاقي: لما لم يعد للفكرة الدينية في سلوك الفرد ما كان لها من فاعلية على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد أصبح المسلم حسب ابن نبي "لا يحتفظ باستقلاله الأخلاقي، ابتداء من اللحظة التي يغادر فيها المسجد، فهو يسقط تحت سطوة قانون العدد. وبدلاً من أن يؤثر على الوسط طبقاً لمثله الأعلى ومبادئه، نجد أن الوسط هو الذي يؤثر عليه، فيجرده من مثله الأعلى، ويهدم مبادئه. وقد تبرز هذه الملاحظة أحياناً بصورة روائية مؤسية، عندما نجد أحد قادة الحركة الإصلاحية في

بلد إسلامي، كالشيخ العقبي بالجزائر، يبذل جهده في دفع حركة كهذه خلال أعوام طويلة، ثم إنه يفقد استقلاله الأخلاقي ليصبح نهائياً حليفاً للاستعمار. ويجب أن نضيف أن الفرق ليس كبيراً عندما يصبح الفرد حليفاً للقابلية للاستعمار."[51]

### 5. البعد الحضاري للتربية الروحية في الإسلام

لا شك أن البعد الأخلاقي ضروري في بناء الحضارة ضرورة الروح في الجسد، ذلك أنه يشكل الرباط المعنوي للمجتمع ولحمة سداه، وفقدانه يهدد المجتمع بفقد مبررات استمراره، وحديث بن نبي عن الأخلاق التي تمثل الجانب الروحي في الإسلام حديث وظيفي وليس حديثا تجريديا فلسفيا " لسنا هنا نهتم بالأخلاق من الزاوية الفلسفية؟ ولكن من الناحية الاجتماعية. وليس المقصود هنا تشريح مبادئ خلقية، بل أن نحدد (قوة التماسك) اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية"[52] وإذا ما سألنا عن مصدر هذا الرابط الذي يشكل لحمة سداة المجتمع يجيبنا مالك بن نبي بالقول: "هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان، عندما تولد الحضارات، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾."[53]

ولقد قام مالك بن نبي بتقديم التربية على أنها مشروع متكامل لتحضير (من الحضارة) الإنسان وتأهيله للمساهمة في المجتمع التاريخي المتحضر، بحيث تضمن هذا التعريف الموضوع والأداة والهدف والوجهة النهائية للمشروع[54]

وينتقد عمر نقيب أولئك الذين استبعدوا اهتمام مالك بن نبي بالمقاربة التربوية في مشروعه الفكري فيقول: "وإذا كان المهتمون بفكر مالك بن نبي قد يتعجبون من المقاربة التربوية لفكره، فإن الرجوع إلى تاريخ العلماء وسيرتهم الذاتية قد يخفف من وطأة هذا التعجب. كما يمكن أن نشير هنا إلى أن من أهم أسباب هذا التعجب هو ما يمكن أن نلاحظه على منهج تعاطي كثير من طلاب العلم والباحثين في فكر مالك بن نبي غلب على اهتمامهم الأكاديمي التكرار والتقليد أكثر منه الاستقلالية والتجديد"[55]

والواقع أن التربية عند ابن نبي تهدف إلى جعل الروح مرتكزا ومبدأ للانطلاق في جوانب التربية الإنسانية المتعددة فكريا وبدنيا واجتماعيا...وبمعنى آخر: هي وضع مشكلة الإنسان ضمن اتجاه الحضارة، وعلى هذا الأساس فهو يدعو الهيئات التي اضطلعت بالدفاع عن المناهج التربوية أن تسير في هذا الاتجاه، حتى تنضج موجّهاتها في بوتقة الروح[56]

والتربية الروحية عند مالك بن نبي هي على غرار التربية الاجتماعية والتي سنوظفها في هذا السياق لاكتشاف مفهوم التربية الروحية، فمالك بن نبي يعرف التربية الاجتماعية بأنها: "منهج يهدي سير مجتمع ما"[57] والتربية الروحية على منوالها هي منهج يهدي السير الروحي للمجتمع المسلم، ولأن الحياة الاجتماعية لا ينبغي أن تنفك عن الحياة الروحية يعطينا بن نبي هذه المقاربة الرائعة: "إنه لكي يمكن التأثير

في أسلوب الحياة في مجتمع ما، وفي سلوك نموذجه الذي يتكون منه، وبعبارة أخرى: لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة، عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية، في مستوى الفرد، وفي مستوى المجتمع."[58]

كما يتحدث ابن نبي عن علاقة الفكرة الدينية –كتشريع رباني- بالتربية الروحية، وانعكاسهما على وظيفة الإنسان في هذه الحياة، على أنها علاقة وظيفية تهدف إلى ضبط غرائز الإنسان وليس إلى إلغائها، وهو ما من شأنه أن يرتقي بالإنسان إلى مستوى الوظيفة الوجودية المناطة به فيقول بأن : "الفكرة الدينية سوف تتولى إِخضاع غرائزه إلى "عملية شرطية" ...وهذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز ولكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية: فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة لم تلغ ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين، وفي هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح."[59]

ومن ناحية أخرى فإن الحضارة كالفرد لها مظهران، أحدهما ظاهري والآخر باطني ولهذا يؤكد مالك بن نبي على أن من علماء الأخلاق في الإسلام كالإمام الغزالي (ت505هـ) قد اهتموا بالجانب الباطني للحضارة في الإسلام وهو الجانب الأخلاقي، إلى درجة اعتباره صورة نفسية للجمال تضاهي الصورة المادية له أو تفوقها في الأهمية، ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا أن اهتمام الإسلام بالروح والجوهر يفوق اهتمامه بالجسد والمظهر، ولا يعني هذا أبدا أن الإسلام أهمل جانب الجمال في المظهر، وهو الاهتمام الذي يظهر في النصوص الداعية إلى التزين وطهارة الجسد والثياب والمكان... ولكن هذا الاهتمام بالمظهر لا ينفع إذا ما فسد المخبر وفسدت الروح بفساد الأخلاق والقيم، ولبيان العلاقة بين جمال المظهر وجمال الروح يقول بن نبي: "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره، وأعماله ومساعيه. ولقد بعثت هذه الملاحظة كل من عنوا بالنفس الاجتماعية من علماء الأخلاق، أمثال الغزالي، لدراسة الجمال، وتقديره في الروح الاجتماعية. ويمكن أن نلخص أفكارهم- في هذا الصدد- في اعتبارهم "الإحسان" صورة نفسية للجمال."[60]

## 6. خاتمة

بعد هذه الجولة السريعة في مؤلفات مالك بن نبي بحثا عن جواب لسؤال تقدم حول حقيقة التصوف في فكر مالك بن نبي توصلنا إلى النتائج الآتية:

1) حضور البعد الأخلاقي أو الصوفي في كتابات مالك بن نبي ملفت وطاغ إلى درجة أن القارئ المدقق لكتبه ومؤلفاته يغرق أحيانا في بعض الصفحات المليئة بمصطلحات وأفكار هذا الفن المعرفي

2) نشأ مالك بن نبي نشأة دينية منذ الصغر، فقد كان جده أحد أركان الطريقة العيساوية، وقد بينا في

البحث كيف كانت بدايات مالك بن نبي مع التصوف من خلال تجربته الصوفية في الزاوية العيساوية

3) من روافد التكوين الصوفي لمالك بن نبي تلك القصص المستمدة من التراث الديني للفرد الجزائري التي كان يتلقاها عن جده وجدته والتي عملت على تكوينه التربوي والأخلاقي منذ الصغر، ومنحته الرصيد الروحي والأخلاقي الذي مكنه من الحفاظ على دينه وهويته أمام محاولات المسخ والهيمنة التي مارسها الاستعمار الفرنسي

4) التصوف عند ابن نبي مرتبط بباب الإحسان وهو الذي انبثق من بوتقته علم التصوف، ولذا فالتصوف عند بن نبي لا يختلف عن تصوف من سبقه من علماء هذا الفن، إذ يشكل عندهم جميعا تجربة وحالا تعبر عن تمثل أحد جوانب الدين الإسلامي الكامل.

5) يستحسن بن نبي أن نطلق على منهاج (التصوف) عنوانا وظيفيا يتناسب ومعطيات الراهن الاجتماعي الذي غلب عليه البعد عن الله وضعف الصلة به، وهو علم تجديد الصلة بالله

6) يعتبر ابن نبي التصوف متغلغلا في كيان المجتمع الجزائري، ويرى أنه يشكل رافدا معرفيا هاما يعمل على أخلقة الحياة الاجتماعية للشعب الجزائري.

7) يؤمن ابن نبي بالكشف الصوفي بوصفه طريقا للمعارف، وله نماذج صوفية وتربوية مبيّئة في إطار ثلاثية الزمان والمكان والإنسان يستلهم منها القدوة في الاعتزاز بالانتماء للمرجعية الوطنية.

8) يرفض مالك بن نبي بعض صور التصوف السلبي المرَضي ومنها صورة الاستقالة من الحياة، أو القول بوحدة الوجود المفضية إلى الكفر، كما يرى ابن نبي أن التصوف الذي لا يؤدي إلى أخلقة الحياة الاجتماعية وإعطائها الفعالية اللازمة للنهوض من سبات الاستقالة من الحياة هو تصوف سلبي لا حاجة للمجتمع الإسلامي به.

9) يرى ابن نبي أنه عندما تأخذ العلاقة بين الأخلاق والمجتمع وضعها الطبيعي السنني، تنتج لنا مجتمعا يحكمه قانون الروح، بحيث تكون القيم الروحية والأخلاقية هي المعيار الذي يضبط بوصلة الفرد والجماعة وليس العكس.

10) يرى ابن نبي أيضا أنه حين تترهل العلاقة بين الأخلاق والمجتمع بسبب ترهل الأخلاق أو فقدانها أو انفتاحها على ما تطلبه النفس البشرية من شهوات وملذات بحيث تصبح هذه المتطلبات هي معيار الأخلاق وليس العكس، فإننا نصبح حينئذ أمام مجتمع مرشح للانهيار أو الاندثار، كما وقع للمجتمع الإسلامي فيما بعد عصر الموحدين.

11) يرى ابن نبي أن البعد الأخلاقي ضروري في بناء الحضارة ضرورة الروح لحياة الجسد، ذلك أنه يشكل الرباط المعنوي للمجتمع ولحمة سداه، وفقدانه يهدد المجتمع بفقد مبررات استمراره، ولهذا قام مالك بن نبي بتقديم التربية على أنها مشروع متكامل يؤهل الإنسان للمساهمة في بناء المجتمع المتحضر، وهو ما ينبغي للمسؤولين على المنظومة التربوية في بلادنا أن يأخذوه بعين الاعتبار والاهتمام.

## 7. قائمة المراجع


- ابن الأزرق، محمد بن علي (د ت)، *بدائع السلك في طبائع الملك*، المحقق: د. علي سامي النشار، العراق، وزارة الإعلام، ط1.
- ابن نبي، مالك، (1981)، *في مهب المعركة*، دمشق – سورية، دار الفكر.
- ابن نبي، مالك، (1984)، *مذكرات شاهد القرن*، دمشق – سورية، دار الفكر.
- ابن نبي، مالك، (1986)، *ميلاد مجتمع*، ترجمة: ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق – سورية، دار الفكر.
- ابن نبي، مالك، (2000)، *القضايا الكبرى*، بيروت – لبنان، دار الفكر المعاصر.
- ابن نبي، مالك، (2002)، *وجهة العالم الإسلامي*، بيروت-لبنان ، دار الفكر المعاصر.
- ابن نبي، مالك، (2007)، *مذكرات (العفن) 1932 – 1940*، تقديم: الدكتور أحمد بن نعمان، تصدير: عبد الرحمن بن عمارة، ترجمة: نور الدين خندودي، الجزائر، دار الأمة.
- ابن نبي، مالك، (2009)، *لبيك: حج الفقراء (رواية)*، ترجمة: د. زيدان خوليف، دمشق، دار الفكر، آفاق معرفة متجددة.
- ابن نبي، مالك، (1979) *تأملات*، دمشق- سورية، دار الفكر.
- ابن نبي، مالك، (1986) *شروط النهضة*، دمشق- سورية، دار الفكر.
- الرازي، فخر الدين، (1420هـ) *مفاتيح الغيب* = التفسير الكبير، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- شريعتي، علي، (1987) *العودة إلى الذات*، ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي.
- مكي، أبو طالب، (2005) *قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد*، المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، بيروت، دار الكتب العلمية.
- النورسي، بديع الزمان، (2000)، *المكتوبات*، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة، شركة سوزلر للنشر.
- نقيب، عمر، (2013)، *منظور مالك بن نبي في تناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي، نحو تأهيل العنوان المسلم لاستئناف وظيفته التاريخية*، مجلة المداد، مج 1 عدد 2.


## 8. الحواشي والإحالات:

[1] لبيك: حج الفقراء (رواية) مالك بن نبي (المتوفى: 1393هـ) ترجمة: د. زيدان خوليف الناشر: دار الفكر آفاق معرفة متجددة الطبعة: الأولى، 1430هـ - 2009 م ص10.

[2] بدائع السلك في طبائع الملك، محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، ابن الأزرق (المتوفى: 896هـ) المحقق: د. علي سامي النشار الناشر: وزارة الإعلام – العراق الطبعة: الأولى ص243.

[3] مذكرات شاهد القرن مالك بن نبي المحقق: (إشراف ندوة مالك بن نبي) الناشر: دار الفكر، دمشق – سورية الطبعة: الثانية، 1404هـ - 1984م ص33.

[4] مذكرات شاهد القرن ص48.

[5] مذكرات شاهد القرن ص49.

[6] مذكرات شاهد القرن ص111.

[7] مذكرات شاهد القرن مالك بن نبي ص19.

[8] مذكرات شاهد القرن ص20.

[9] قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: 386هـ) المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الثانية،

1426 هـ -2005 ج1 ص272.

[10] وجهة العالم الإسلامي مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: 1393هـ) الناشر: دار الفكر معاصر بيروت-لبنان / دار الفكر دمشق – سورية الطبعة: 1431هـ = 2002م / ط1: 1986م ص54.

[11] في مهب المعركة مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: 1393هـ) الناشر: دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان / دار الفكر دمشق – سورية الطبعة: 1423هـ - 2002م / ط3: 1981م ص168.

[12] وجهة العالم الإسلامي ص54.

[13] شروط النهضة، مالك بن نبي (المتوفى: 1393هـ) المحقق: (إشراف ندوة مالك بن نبي) الناشر: دار الفكر-دمشق سورية عام النشر: 1986م ص78.

[14] في مهب المعركة، مالك بن نبي (المتوفى: 1393هـ) الناشر: دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان / دار الفكر دمشق – سورية، الطبعة: 1423هـ - 2002م / ط3: 1981م ص167.

[15] في مهب المعركة ص169.

[16] مذكرات شاهد القرن ص20 .

[17] مذكرات شاهد القرن، ص24.

[18] العودة إلى الذات – علي شريعتي ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا (الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ط2 ، 1408هـ). ص 132.

[19] فانون فرانز عمر(1925 – 1961) مفكر سياسي من جزيرة مارتنيك قرب مدغشقر، شارك في كفاح الجزائر ضد فرنسا وكان متخصصا في الطب النفسي والبشري وقد عمل في مستشفى بليدة بالجزائر عام 1956، من اشهر مؤلفاته « معذبو الأرض» سنة 1961.

[20] العودة إلى الذات – مرجع سابق ص 128.

[21] العودة إلى الذات، علي شريعتي، ص 131 -132.

[22] لبيك: حج الفقراء (رواية) ص39.

[23] ينظر: مذكرات شاهد القرن ص64.

[24] مذكرات شاهد القرن ص 65.

[25] وهو أن ما تركه النبي صلى الله عليه وسلم، أو السلف الصالح من غير أن يأتي حديث أو أثر ينهى عن ذلك الشيء المتروك يقتضي تحريمه أو كراهته. ينظر: حسن التفهم والدرك لمسألة الترك، عبد الله بن الصديق الغماري، مكتبة القاهرة، مصر، ط6/ 2013، ص9.

[26] مذكرات شاهد القرن، ص125، 126.

[27] مذكرات (العفن) 1932 - 1940 مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: 1393 هـ) تقديم: الدكتور أحمد بن نعمان تصدير: عبد الرحمان بن عمارة ترجمة: نور الدين خندودي الناشر: دار الأمة الطبعة: الأولى، 2007 ص149.

[28] مذكرات (العفن) 1932 – 1940 ص150.

[29] مذكرات شاهد القرن ص 65.

[30] في مهب المعركة ص69، 70.

[31] تأملات مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: 1393هـ) المحقق: (إشراف ندوة مالك بن نبي) الناشر: دار الفكر-دمشق سورية الطبعة: الأولى، 1979م. ص44.

[32] في مهب المعركة ص 167.

[33] المكتوبات، بديع الزمان النورسي، ص579.

[34] المكتوبات، بديع الزمان النورسي، ص579.

[35] المكتوبات، بديع الزمان النورسي، ص579.

[36] وجهة العالم الإسلامي ص54.

[37] القضايا الكبرى، ص48.

[38] ميلاد مجتمع مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: 1393هـ) ترجمة: ترجمة عبد الصبور شاهين الناشر: دار الفكر - الجزائر / دار الفكر دمشق – سورية الطبعة: الثالثة، 1406 هـ - 1986م ص41.

[39] ينظر: مذكرات (العفن) 1932 – 1940 ص75.

[40] وجهة العالم الإسلامي مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: 1393هـ) الناشر: دار الفكر معاصر بيروت-لبنان / دار الفكر دمشق – سورية الطبعة: 1431هـ = 2002م / ط1: 1986م ص156.

[41] مفاتيح الغيب = التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ 21/ 386.

[42] ميلاد مجتمع ص46.

[43] ميلاد مجتمع ص 74.

[44] ميلاد مجتمع ص77.

[45] ميلاد مجتمع ص51.

[46] تأملات ص168.

[47] تأملات ص173.

[48] القضايا الكبرى ص123.

[49] شروط النهضة ص69.

[50] تأملات ص 172.

[51] ميلاد مجتمع ص110.

[52] شروط النهضة ص88.

[53] شروط النهضة ص88.

[54] عمر نقيب، منظور مالك بن نبي في تناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي، نحو تأهيل العنوان المسلم لاستئناف وظيفته التاريخية مجلة المداد مج 1 عدد 2 ديسمبر 2013 ص151.

[55] عمر نقيب، منظور مالك بن نبي في تناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي، نحو تأهيل العنوان المسلم لاستئناف وظيفته التاريخية، ص 146.

[56] انظر: القضايا الكبرى مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: 1393هـ) إشراف: ندوة مالك بن نبي الناشر: دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان / دار الفكر دمشق – سورية الطبعة: 1420هـ 2000م / ط 1: 1991م، ص62.

[57] ميلاد مجتمع مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: 1393هـ) ترجمة: ترجمة عبد الصبور شاهين الناشر: دار الفكر - الجزائر / دار الفكر دمشق – سورية الطبعة: الثالثة، 1406 هـ - 1986م، ص73.

[58] ميلاد مجتمع ص76.

[59] شروط النهضة ص 67.

[60] شروط النهضة، ص91.